# «الحقيقة المحمدية»..
# المفاهيم المتداخلة والمصطلحات المتشابهة (١)

د. محمد أبو عمر - مصر

ما بين محبة صادقة ترفعُ القدرَ، وغلوّ مهلك يهدمُ العقلَ والدينَ، يضيعُ كثيرٌ من الناس، وتزيغُ بهم أهواء الفلاسفة عن جادَّةِ الصواب.

إن محبة النبي صلى الله عليه وسلم أصلٌ عظيمٌ من أصول الإيمان، غير أن هذه المحبةَ المباركةَ إن لم تُضبطْ بضوابطِ الوحي انقلبتْ على الأعقابِ وباءتْ بالخسران. ثمّة فارقٌ دقيقٌ كحدِّ السيف بين التعظيم المشروع والغلوِّ المذموم؛ فالمحبةُ الشرعيةُ تقفُ عند حدود العبودية والرسالة، في حين أن الغلوَّ يتجاوزُ ذلك إلى ادّعاء أوصافٍ لا تليقُ إلا بالله سبحانه. تأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»[١].

ومن هذا المنطلق، نقف اليوم مع مصطلحٍ جثم على صدر الثقافة الإسلامية قرونًا، وهو «**الحقيقة المحمدية**»، الذي يمثل الذروة في تعظيم المخلوق حتى إلباسه خصائص الربوبية، وكأنما تسلل إليهم الشيطانُ من باب الحب، فإذا بهم يهدمون أساسَ الدين.

وقبل أن نفصّل في تحرير المصطلح، ينبغي تجلية أن «**الحقيقة المحمدية**» في اصطلاح الصوفية لا تعني شخص النبي محمد ﷺ، ولا سيرته أو هديه أو سنته. إنهم يتحدثون عن «**مبدأ كوني**» سابق للوجود، وعن «**جوهرٍ أزلي**» هو أصل الموجودات، وعن «**حقيقةٍ كلية**» لا ترتبط بزمان ولا مكان، تجلّت في الزمان بصورة شخص النبي ﷺ، ثم استمرت في التجلي عبر العصور في صور الأنبياء والأولياء والأقطاب! يقول ابن عربي: «كل نبي من لدن آدم إلى آخر نبي ما منهم أحد يأخذ إلا من مشكاة خاتم النبيين، وإن تأخرت طينته في الوجود، فإنه بحقيقته موجود»[٢]، فمحمدٌ عندهم – وحاشاه – ليس ذلك النبيَّ الأميَّ ﷺ الذي عاش في مكة، بل «**حقيقةٌ كونيةٌ**» تتناسخ في قوالبَ بشرية[٣].

بل زعم الجيلي قائلاً: «**فقد اجتمعت به ﷺ وهو في صورة شيخي الشيخ شرف الدين إسماعيل الجبرتي، ولست أعلم أنه النبي ﷺ، وكنت أعلم أنه الشيخ... فإذا كشف لك عن الحقيقة المحمدية أنها متجلية في صورة من صور الآدميين، فيلزمك إيقاع اسم تلك الصورة على الحقيقة المحمدية، ويجب عليك أن تتأدب مع صاحب تلك الصورة تأدبك مع محمد ﷺ**»[٤]، ما قيمة

١ - صحيح البخاري، رقم (٣٤٤٥).

٢ - فصوص الحكم، ابن عربي، دار الكتاب العربي، ص ٢١٤.

٣ - التعريفات، علي الجرجاني، دار الكتب العلمية ط ١، ص ٩١.

٤ - الإنسان الكامل، عبد الكريم الجيلي، دار الكتب العلمية، ط ١، ٢/٧٤.

النبوة أو ختمها إذا تحوّل الشيخ إلى نسخة من النبي في وجوب التوقير والتعظيم؟! إنها الثمرة الخبيثة المباشرة لهذه النظرية، حيث يصبح الشيخ الحي هو مظهر الحقيقة المحمدية في زمانه، ومن هنا انفتح باب غلوهم لشيوخهم.

وقبل أن نستعرض التعريفات الصوفية للمصطلح، لا بد من التنبيه لغويًا بأنه مركب إضافي لم يرد في معاجم اللغة العربية، ولا في نصوص الوحي، ولكن إن حاولنا تفكيكه لغويا فكلمة «**حقيقة**» في اللغة مؤنث «**حقيق**» بمعنى الثابت الواجب الصادق، و«**محمدية**» نسبة إلى محمد ﷺ. فلو حملناه على ظاهر اللغة لكان معناه: الأمر الثابت المنسوب إلى محمد، وهذا لا علاقة له البتة بتلك المعاني الفلسفية التي ألصقوها به، وستظهر بإذن الله!

ولنستعرض الآن تعريفات كبار رجال التصوف الفلسفي للمصطلح، ليظهر لنا كيف تنطوي كل كلمة منها على عوالم من الانحراف؟

**الأول:** قال الجرجاني: «**الحقيقة المحمدية: هي الذات مع التعين الأول، وهو الاسم الأعظم**»[٥]. فـ«**الذات**» تعني حقيقة الله سبحانه وتعالى، وأما «**التعين الأول**» فيقصدون به أول ظهور لتلك الذات في صورة من الصور، بعد أن كانت في مرتبة «**اللا تعين**» – أي: الغيب المطلق الذي لا اسم له ولا صفة – كما بيّن التهانوي[٦].

فالحقيقة المحمدية عندهم هي أول صورة ظهر فيها الله! وهذا يعني أن الله تجلى وتشكل في محمد أول ما تجلى -والعياذ بالله-! وأما إطلاق «**الاسم الأعظم**» عليها فيعني أنها مظهر الاسم الجامع «**الله**»، بل هي نفسها الاسم الأعظم! وصدق الله سبحانه (وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [الأعراف: ١٨٠].

**الثاني:** يقول القاشاني في شرحه للفصوص: «**إن محمدًا أول التعينات التي بينت بها الذات الأحدية... فهو يشمل جميع التعيينات، فهو واحد فرد في الوجود... وليس فوقه إلا الذات الأحدية المطلقة**»[٧]، و«**الذات الأحدية**» تعني ذات الله التي لا تتجزأ، ومع ذلك يجعلونها تتعين في صور! وقولهم «**فرد في الوجود**» يعني أنه هو الوجود كله، وأن الكثرة التي نشاهدها ما هي إلا مظاهر لهذا الوجود الواحد، وهذا هو مذهب وحدة الوجود بعينه!

**الثالث:** يقول ابن عربي: «**الحقيقة المحمدية... هي الحادث الأزلي والنشء الدائم**»[٨]، «**حادث**» تعني مخلوقًا مسبوقًا بعدم، و«أزلي» تعني لا بداية له ولا أول. إنه يجمع بين وصفين لا يجتمعان في عقل ولا شرع!

**الرابع:** أما الحلاج – وهو أول من فتح باب هذا الغلو – فيقول: «**سراج من نور الغيب بدا وعاد... هو الأول في الوصلة، هو الآخر في النبوة... الحق ما أرسله إلى خلقه لأنه هو**»[٩]، «**سراج من نور الغيب**» يعني أن نور النبي ﷺ جزء من نور الله، ثم يصفه بصفات الله في سورة الحديد: (هو الأول والآخر والظاهر والباطن)! ثم يصرّح بقوله: «**لأنه هو**» أي أن الله ما أرسل محمدًا إلا لأن محمدًا هو الله! إن هذا الكلام لا يحتمل التأويل، وهو يمثل المرحلة المبكرة من الحلول الصريح قبل أن يُصاغ المصطلح بصيغته المركبة.

من هذه التعريفات يتبين وجود شبكة كثيفة من المصطلحات الخاصة تتقاطع مع مصطلح «**الحقيقة المحمدية**». يوضح ذلك د. لطف الله خوجة بقوله: يوجد ما يقرب من أربعين مصطلحًا تندرج تحت هذا المفهوم، كلها تصب في معين واحد وهو: جعل المخلوق واسطة بين الله والعالم، وإضفاء خصائص الربوبية عليه. من أبرزها: العقل الأول، العقل الفعال، حقيقة الحقائق، الروح الأعظم، القلم الأعلى، النور المحمدي، الإنسان الكامل، القطب، الغوث، الأبدال، البرزخ، الواسطة، التعين الأول، الفيض، وغيرها[١٠]. ونظرًا لضيق المقام، سنقف مع ستة منها تعد الأكثر انتشارًا، ونتناولها بشيء من الاستيعاب، ليرى القارئ كيف تتشابك المصطلحات عندهم؟

**أولًا:** «العقل الأول». قال ابن عربي: «اعلم أن الحقيقة المحمدية مسماة بالعقل الأول»[١١]، وهو جوهر روحاني مجرد، أول ما صدر عن الله، وهو الذي فاضت عنه سائر العقول والنفوس والعالم المادي. أرأيت كيف تحولت عنده الحقيقة المحمدية إلى «**إله صغير**» يدبر الكون؟!

٥ - التعريفات، ص ٩١.

٦ - كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد علي التهانوي، مكتبة لبنان ناشرون، ط ١، ١١٠/١.

٧ - شرح فصوص الحكم، عبد الرزاق القاشاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط ٣، ص ٣١٨.

٨ - التنبيهات على علو الحقيقة المحمدية (ضمن مجموع رسائل ابن عربي)، محيي الدين ابن عربي، دار الكتب العلمية، ط ١، ص ٤٠٨.

٩- كتاب الطواسين، الحلاج، المكتبة الكاثوليكية، ص ٩.

١٠ - مفهوم الإنسان الكامل في الفكر الصوفي (عرض ونقد)، د. لطف الله خوجة، دار الفضيلة، ط ١، ص ١٨٢.

١١ - التنبيهات على علو الحقيقة المحمدية، ص ٣٩٤.

والأحاديث التي يستندون إليها أحاديث موضوعة باتفاق المحدثين كحديث «**أول ما خلق الله العقل**»[١٢]، مما يكشف بناء تصورهم على وهم. والمصطلح دخيل على الإسلام، مأخوذ من فلسفة أفلوطين اليونانية التي تتحدث عن الصادر الأول عن «**الواحد**». فانظر كيف تسللت الحكمة اليونانية لتُلبس لباس «**الحقيقة المحمدية**»!

**ثانياً**: «**حقيقة الحقائق**». قال ابن عربي: «**الحقيقة المحمدية هي حقيقة الحقائق التي عنها ظهرت الحقائق**»[١٣]، أرأيت كيف ينتقل الخطاب من جعلها «**أول مخلوق**» إلى جعلها «**أصل كل شيء**»؟! وهي مأخوذة من فكرة «**المثال الأعلى**» أو «**الحقيقة الأولى**» في الفلسفة الأفلاطونية.

**ثالثاً**: «**الروح الأعظم**». قال الجرجاني: «**الروح الأعظم... هو العقل الأول، والحقيقة المحمدية... وهو أول موجود خلقه الله على صورته، وهو الخليفة الأكبر**»[١٤]، وقال ابن الفارض في «**تائيته**»: «**وروحي للأرواح روح وكل ما ترى حسنًا في الكون من فيض طينتي**»[١٥]. فهم يجعلون الحقيقة المحمدية مصدر الأرواح كلها، وأعظم من روح جبريل وسائر الملائكة! وهذا إسناد لفعل الخلق والإيجاد إلى مخلوق، والله وحده هو خالق الأرواح ومبدعها، تأمل هذه الجرأة: مخلوق يصبح مصدر الأرواح!

**رابعاً**: «**القلم الأعلى**». قال ابن عربي: «**وبالقلم الذي علم الله تعالى به الخلق كلهم**»[١٦]، لقد أخذوا حديث «**إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب...**»[١٧]، فحرّفوه عن موضعه، وجعلوا القلم هو النبي ﷺ بحقيقته! فبدلاً من أن يكون القلم مخلوقًا مأمورًا بكتابة المقادير، صار هو الحقيقة المحمدية!

**خامساً**: «**النور المحمدي**». قال الحلاج: «سراج من نور الغيب... أنوار النبوة من نوره برزت... أقدم من القدم»[١٨]، إنهم يُخرجون النبي عن جنس البشرية، ويجعلونه من نور! وكأن آدم لم يُخلق من طين! أين هذا من قول الله: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ) [الكهف: ١١٠]، ومن الحديث الصحيح الذي يفرّق بين الملائكة المخلوقين من نور وآدم المخلوق من طين[١٩]؟! لقد اختلط عندهم النور المعنوي – الذي هو الهداية – بالنور الحسي، فزعموا أن النبي خُلق من نور، ثم جعلوا هذا النور مادة الخلق الأولى!

**سادساً**: «**الإنسان الكامل**». قال الجيلي: «**الإنسان الكامل هو القطب الذي تدور عليه أفلاك الوجود... واسمه الأصلي محمد**»[٢٠]، وقال القونوي: «**فالإنسان هو الحق، وهو الذات، وهو الصفات... وهو القديم، وهو الحادث**»[٢١]. إن النتيجة النهائية لهذه النظرية: تأليه الولي!

والحاصل أن هذه المصطلحات البرّاقة ما هي إلا قناعٌ فلسفيٌّ لفكرةٍ مهلكةٍ وهي: أن يشارك المخلوقُ الخالقَ في خصائصه.

وفي المقال القادم بإذن الله نغوص أعمق، لنعرف كيف تسلّل هذا الفكر؟ ومن أي وادٍ جاء؟ حينها سترى أن الحقيقة ليست مع كلمات عابرة، بل مع عقيدةٍ تُذيب الفرق بين العبد والرب، تحت شعار المحبة. فانتظر!

١٢ - ابن الجوزي في الموضوعات، المكتبة السلفية، ط ١، ٢٧٤/١، وابن تيمية في مجموع الفتاوى، ٣٧٠/١٨، وابن القيم في المنار المنيف في الصحيح والضعيف، مكتبة المطبوعات الإسلامية، ط ٢، ص ٥٤.

١٣ - الفتوحات المكية، ابن عربي، دار صادر، ٤٤٤/٢.

١٤ -التعريفات، ص ١١٢.

١٥- ديوان ابن الفارض، دار بيروت للطباعة والنشر، البيت رقم ٣١٣، ص ٧٨.

١٦ - التنبيهات على علو الحقيقة المحمدية، ص ٣٩٤.

١٧ - سنن أبي داود، حديث (٤٧٠٠)؛ وسنن الترمذي، حديث (٢١٥٥)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».

١٨ - كتاب الطواسين، ص ١٠.

١٩ - صحيح مسلم، حديث (٢٩٩٦).

٢٠ - الإنسان الكامل، ٧٤/٢.

٢١ - مراتب الوجود، صدر الدين القونوي (نقلاً عن: الإنسان الكامل في الإسلام، د. عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، ط ٢، ص ١٤٧.